عمة الفرنسية
بقلم الاستاذ عبد الرحمن صدقي

كان ذلك فى أوان الصيد فى قصر باعيل ، والخريف مطير حزين ، والأوراق المنتثرة ذابلة محمرة لا يسمع لها تقصف تحت الأقدام ، بل تعطن فى السكك ومدارج العجلات تحت شآبيب الديم الهطالة

وكانت الغابة وهى جرداء إلا قليلا تشبه الحمام من الرطوبة . فإذا أوغلت فيها تحت أفنان الدوح العالى بصفقه وابل القطر شممت رائحة محمة وشبه ماء من العشب المخضل والأرض المبتلة

والصيادون حناة الظهور يدبون تحت هذا الفيض الهتون ، والكلاب محزونة ذيلها مرسل ، وشعرها ملتصق بآباطها ، والغانيات الصائدات فى أثواب الصوف المفصلة لأجسادهن مشربة بالبلل ، وهم كل مساء يؤوبون من الصيد أنضاء جسم وعقل أجمعين

وفى البهو الكبير بعد العشاء يجتمعون إلى لعبة الورق متقارعين ، من غير انبساط ولا لذة . والريح فى الخارج هبات مدوية تدفع فى مصاريع الشبابيك المغلقة ، وتبتدر دوارات الهواء فوق الأبراج فاذا هى من دوران كالخذروف المدوم

فأرادوا أن يسمروا بالحكايات كما تروى فى الكتب ، ولكنهم لم يفتح على واحد منهم بابتداع حكاية مسلية .

ومضى الصيادون يقصون ما وقع لهم أثناء صيدهم بالبنادق وتقتيلهم الأرانب ، وجعلت الغانيات يكددن أذهانهن ويتقصين فى ثناياها فلا يجدن خيالاً كخيال شهرزاد يسعفهن بحكاية من أمثال حكايات ألف ليلة ، وكادوا يكفون عن الأحاديث .

وكانت إحدى الغانيات تعبث خابية البال بيد عمتها العجوز ، وهى عانس لم تتزوج ، فلحظت خاتماً صغيراً من شعرات شقراء كثيراً ما وقع ناظرها عليه من غير أن تفكر لحظة فيه

فسألتها وهى تديره فى أصبعها بلطف : « ألا قلت لنا يا عمتى ما هذا الخاتم ؟ لكأنه شعر غلام يافع . . . » فاحمار وجه العانس ثم اصفار ، وأجابت بصوت مهدج : « إن الأمر محزن جداً ، محزن جداً ، حتى لست أحب الكلام عنه . وكل ما فى حياتى من الشقاء فهذا مصدره . لقد كنت فى غرارة الشباب وقتئذ ، ومازالت تلوعنى الذكرى حتى ليغلبنى البكاء كلما خطرت فى نفسى

فتلهفوا إلى سماع الخبر ، وأبت العمة ذلك عليهم ، فما زالوا بها حتى رضيت فى آخر الأمر :

« كثيراً ما سمعتموني أتحدث عن أسرة سانتير ، وقد انقرضت اليوم جميعاً ، ولقد عرفت الثلاثة الرجال الأخر من هذا البيت ، والثلاثة ماتوا ميتة واحدة وهذه شعرات الأخير ، وكان فى الثالثة عشرة من عمره حين انتحر من أجلي . لقد يبدو لكم الخبر غريباً ، أليس كذلك ؟

آه . لقد كانوا معشراً عجيباً من المجانين ، إن شئتم هذه التسمية ، ولكن مجانين ظرفاء ، مجانين غرام . فهم جميعاً — أباً عن جد — أصحاب عواطف عارمة جامحة ، تدفعهم من كيانهم كله دوافع قوية إلى أبعد السبحات وإلى التفانى وفرط التحمس ، بل تذهب بهم إلى حد ارتكاب الجرائم ؛ وهذا منهم بمقام فرط التدين فى بعض النفوس . وشتان فى الطبيعة والمزاج بين أهل العبادة وبين رواد المجالس أزيار النساء . وكان يتردد فى أوساطهم وبين ذوى رحمهم قولهم : « عاشق عشق بنى سانتير » ، وحسبك أن تراهم فتجد هذا على سيماهم . فكلهم شعره ذو خصل منسدلة على الجبين ولحيته جعدة وعيناه واسعتان ينفذ شعاعهما فى نفسك فيبلبلك ويشغل خاطرك دون أن تعرف لذلك سبباً

وكان جد الغلام — الذى رأيتم فى أصبى تذكاره الوحيد — له مغامرات عدة ومبارزات وسبي واستباحة للحريم . وقد هام بعدها وهو فى نحو الخامسة والستين بأبنة مؤاجر ضياعه . وإنى لأذكرها . وكانت شقراء شاحبة اللون ، حسنة السمت والشارة ، تتكلم متئدة وفى صوتها لين وترطيب ، ونظرتها حلوة غاية فى الحلاوة كأنها نظرة العذراء فى صور الرسامين . فأخذها السيد الكهل عنده ، وسرعان ما أصبح متيما بها لا يطيق البعد عنها لحظة . وكانت ابنته وامرأة ابنه المقيمتان فى القصر تجدان الأمر طبيعياً أطول ما قر الحب فى تقاليد الأسرة . فالموضوع ما دام محوره العشق فليس فيه ما تنكرانه وتتعجبان منه . وإذا دار الحديث أمامهما عن هوى قامت الموانع دون قضاء لباناته ، أو عاشقين فسد ما بينهما أو وقائع الانتقام من الخيانة أو نقض العهد ، قالتا معاً فى لهجة شجية : « له الله ! أو (لها الله !) لشد ما قد تألم ولا ريب حتى بلغ الأمر هذا المبلغ » ثم لم تزيدا على ذلك . وإنهما لترقان لمآسى الحب ، ولا تنقمان قط على أصحابها ولو أجرموا

إلا أنه فى ذات خريف كان بين المدعوين للصيد شاب فى عنفوان الشباب ، هو المسيو دى جرادبل فاختطف الفتاة . وظل المسيو سانتير هادئاً كأن لم يحدث شيء . وإذا هم يصبحون ذات يوم فيجدونه مشنوقاً بعرقد الكلاب وهى حوله

وقد مات ابنه مثل هذه الميتة فى فندق بباريس فى أثناء رحلته سنة ١٨٤١ ، على أثر خيانة إحدى مغنيات الأوبرا له . وترك ولده ولدا فى الثانية عشرة وأرملة هى أخت أمى . وجاءت السيدة ومعها الصغير للمقام عندنا بأرضنا فى بريتون . وكنت وقتئذ قد بلغت سبعة عشر ربيعا

ولا يسعكم أن تتصوروا كيف كان هذا الصغير سانتير مدهشا باكر النضوج قبل الأوان . وإنه ليخيل الى المرء أن جميع ملكات أسلافه من رقة عاطفة وسبحات نفس جائشة قد اجتمعت فيه ونزلت به . بهذا العقب الأخير . وكان على الدوام حالماً يتمشى وحيداً ساعات كاملة فى ممشى رحيب بين أشجار الدردار ممتد من القصر الى الغابة . وكنت أرقب من نافذتى هذا الصبى الرقيق الوجدان وهو يسير وقور الخطى ويداه خلف ظهره مطرقا الى الأرض ، وأحيانا يتوقف ويرفع طرفه كأنه يرى ويدرك ويحس أشياء ليست لمن كان فى سنه

وكثيراً ما كان يدعونى للخروج بعد العشاء فى الليالى القمرة قائلاً : « هلمى يا ابنة الخالة نحلم .. » فنمضى سوياً الى الروض . وكان يتوقف فجأة فى الفضوات بين تفاريج الشجر حيث تطفو تلك الهبوة البيضاء مثل نديف القطن يبطن بها القمر فجوات الغاب . ويقول لى وهو يشد على يدى : « انظرى الى هذا ، انظرى الى هذا ! ولكنك لا تفهميننى ؛ إنى لأحس ذلك . لو إنك تفهميننى لكنا سعداء . لابد من الحب لمن شاء المعرفة » . وكنت أضحك وأقبله ، أقبل هذا الصبى الذى يحبنى مستهلكاً فى حبى . وكان أيضاً بعد العشاء كثيراً ما يجلس على ركبتى أمى قائلاً لها : « إيه يا خالة ، قصى علينا شيئاً من قصص الحب » فتحكى له أمى على سبيل الدعابة أساطير أهل بيته كافة وجميع ما وقع لآبائه من الوقائع الغرامية ، والناس يرددون منها الألوف بعد الألوف من صحيحة ومفتراة . إن هؤلاء القوم قد أضاعتهم شهرتهم ، فقد كانوا يستجيشون لها ثم عاكسهم العزة أن يكذبوا سمعة بيتهم وما اشتهر به وكان الصغير يهتز لهذه الحكايات لطيفها وفظيعها ؛ وكان فى بعض الأحيان يدق بيديه مردداً : « وأنا أيضاً ، وانى لأعلم بالحب منهم جميعاً » . ثم جعل يتحبب إلىّ متغزلاً فى استحياء وحنان عميق كانا مثاراً للضحك لشدة غرابة الأمر . وكان فى كل صباح يقطف لى جنى الزهر ، وفى كل مساء قبل صعودى الى مقصورتى يلثم يدى هامساً : « أنا أهواك ! »

لقد أذنبت ، وركبنى أعظم الذنب . ومازلت على هذا نادمة باكية لا يرقأ لى دمع . ولى أنى التكفير عن هذا طيلة حياتى ، وقد بقيت بعده عانساً لا أتزوج ، بل بقيت كالخطيبة المترملة ، أجل أنا له ، الأرملة . كنت ألهو بهذا الحب الصبيانى بل كنت أعمل على إذكائه . فكنت المرأة الخلوب ذات الدل ، وكأنى إلى جنب رجل ألاعبه وأخاتله . لقد فتنت هذا الغلام ودلّهته بحبى . وكان الأمر عندى لعباً ومداعبة ، وعند أمى وأمه تسلية وترويحاً . لقد كانت سنه اثنتى عشرة سنة ، فتأملوا : من كان يأخذ مأخذ الجد هذا الغرام الذرّى ! فكنت أقبّله ما شاء ، بل كنت أكتب رسائل العشق له وأقرئها أمى وأمه قبله ؛ وكان يجيب عليها بكتب مسطورة ، كتب من نار ، وقد احتفظت بها . وكان معتقداً أن صلتنا الغرامية سراً مكتوماً ، وكيف لا وهو يعتد نفسه رجلاً والأمر فى عرفه الجد كل الجد . وقد غاب عنا أنه من بنى سانتيز

ودامت الحال على هذا المنوال عاماً أو قرابة عام . وفى ذات مساء ونحن فى الروضة خرّ جاثياً عند قدمىّ ولثم حاشية ثوبى فى اندفاع الهتاج مردداً : «أنا أهواك ، أهواك ، أنا ميت فى هواك . وإذا خنتنى فى يوم من الأيام ، أسامعة أنت — إذا هجرتنى إلى سواى فأنى صانع مثلما صنع أبى ...» وأردف فى صوت عميق يقشعر له البدن : « أنت عليمة بما صنع ! »

ولما وجمت ولم أحر جواباً نهض وشبّ على أطراف قدميه ليبلغ إلى أذنى — وكنت أفرع منه

طولا — ودعانى باسمى ، اسمى الأول ، « جنفييف ! » بنغمة حلوة جميلة رقيقة تمالكنى منها فشعريرة سرت من فرعى إلى أخمص قدمى

فغمغمت : « لنرجع ، لنرجع إلى الدار » . فلم يبس بكلمة وسار فى إثرى . فلما هممنا بصعود درج السلم استوقفنى : « أتعرفين ؟ إذا هجرتنى فأنى قاتل نفسى »

فعلمت هذه المرة أننى تمادبت حيث لا يجب التمادى وتكلفت معه التحفظ . ولما أن كتب ذات يوم يعتب علىّ أجبته : « أنت اليوم أكبر من عبث المزاح وأصغر من جد الحب . وإنى فى الانتظار » . وحسبتنى بهذا قد أبرأت ذمتى

وفى الخريف عهدوا به إلى مدرسة داخلية . فلما عاد فى الصيف التالى كنت مخطوبة . فأدرك الأمر فى الحال ، والتزم مدى ثمانية أيام هيئة المفكر الغارق فى التفكير . فأهمنى ذلك وساورنى منه قلق شديد

وفى صبيحة اليوم التاسع استيقظت من نومى فوقعت عيناى على رقعة صغيرة مدسوسة من تحت الباب . فتناولتها وفتحتها وقرأت فيها : « لقد هجرتنى ، وأنت تعلمين ما قلته لك . لقد قضيت فىّ بالموت . وإنى لأحب ألا يعثر بى أحد غيرك ، فتعالى إلى الروض فى نفس الموضع الذى قلت لك فيه أنى أهواك وتطلعى فى الفضاء »

فكدت أن أجن . وأسرعت بارتداء ثيابى وهرولت على عجل أجرى وأجرى وأكاد أتساقط إعياء إلى المكان المعين . وإذا قبعته الصغيرة المدرسية ملقاة على الأرض فى الوحل ، فقد كانت الليلة مطيرة . ورفعت طرفى فأبصرت شيئاً معلقاً يترجح بين الورق ، وكان يوم ريح ، ريح شديدة

ولا أدرى بعد ذلك ما صنعت . لقد صرخت أول الأمر ولا ريب ، وإننى سقطت بعدها مغشياً علىّ ، ثم عدوت هائمة على وجهى إلى القصر . وثبت إلى الرشد فى فراشى وأنى إلى جانبى

تخيل إلى أنى رأيت ما رأيت كله فى هذيان حلم فظيع . فغمغمت : « وهو ، هو ، جونتران ؟ » . فلم يجبنى أحد . إنها الحقيقة

ولم أجرؤ على طلب رؤيته . وطلبت إليهم خصلة طويلة من شعره الأشقر . وهذى ... هذى ... هى ...

ومدت المانس يدها الراجفة بحركة القانط المقطوع الرجاء وأخرجت منديلها ومخطت مرات ومسحت عينيها الدامعتين واستأنفت تقول : « ونقضت الخطوبة دون إبداء السبب ... وبقيت ... بقيت طوال العمر ... أرملة ... أرملة هذا الصبى ابن الثلاثة عشر ربيعاً » . ثم مال رأسها على صدرها وبكت طويلاً بدموع الذكرى

ولما انصرف المدعوون إلى حجراتهم للرقاد ، مال صياد غليظ الجسم قد أفسدت عليه الحكاية صفوه إلى أذن جاره هامساً : ألا ترى رقة الوجدان إلى هذا الحد بلاء وشرّ بلاء !

عبد الرحمن صدقى